Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف .المسيلة الجزائر

المجلد 10عدد 02 رقم21: نوفمبر 2022 صفحة من :120 إلى 132

صورة الآخر في رحلة رفاعة الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"

Image of the other in Rifa'a Al-Tahtawi's Journey (An Imam in Paris: Account of a Stay in France by an Egyptian Cleric) (Takhles Al Ebreez fy Talkhes Paris)

المؤلف الأول[1]* فاطمة الغزال

qu.edu.qa@200762141. (كلية الآداب والعلوم. جامعة قطر. قطر)

معلومات المقال Article info

تاريخ الاستلام: 2021 /11/18

تاريخ القبول: 2022/07/19

تاريخ النشر 2022/11/01

الكلمات المفتاحية:

أدب الرحلة، الآخر، الأنا، باريس، رفاعة الطهطاوي.

Key words:

travel literature, the other, the ego, Paris, Rifa'a Al–Tahtawi.

ملخص Abstract

شكل القرن التاسع عشر فترة ذهبية في أدب الرحلات، لما أضافة الرحالة من رحلات وأسفار أثرت الدرس الأدبي وأدب الرحلة بشكل خاص، إذ سطر الرحالة بأقلامهم ما عاينوه من تجارب في أسفارهم. وتسعى الدراسة إلى بحث صورة الآخر والتي تجلت في أخلاقه، ومظهره، وسلوكه، وعلاقته مع الآخرين في رحلة رفاعة الطهطاوي، لتجيب الدراسة على سؤال كيف صورت الأنا ذلك الآخر وعبرت عنه؟

The nineteenth century constituted a golden period in travel literature, as travelers added trips and travels that richened the literary lesson and travel literature in particular as travelers wrote with their pens what they had experienced in their travels

The study seeks to examine the image of the other which is shown in his morals, appearance, behavior and relationship with the others in Rifa'a Al-Tahtawi's Journey in order for the study to answer the question of how the ego imaged that other and expressed him?

المؤلف المرسل: فاطمة جاسم الغزال، طالبة ماجستير تخصص لغة عربية مسار الدراسات الثقافية المقارنة، جامعة قطر، كلية الآداب والعلوم.

1. مقدمة:

يختلف حضور الأنا والآخر بتجلياته ومظاهره في حقول معرفية عديدة، إذ ظهر مصطلح الأنا في الخطاب الديني والفلسفي قبل انتقاله كمفهوم في علم النفس، وتعالق هذا المفهوم مع الحقول المعرفية المتعددة ليشكل محورا رئيسا في أدب الرحلة، إذ اهتم الرحالة الشرقي منذ القدم بالتعرف على الآخر في فضول ورغبة بالاستكشاف منطلقا بذلك من ثنائيات متعددة كالمركز والهامش، وأيضا ثنائية الشرق والغرب التي زرعها الاستعمار، هذه الثنائيات أدت إلى شعور الأنا بالدونية والرغبة إلى التعرف على الآخر المتفوق. فشد الرحالة رحله وخاض مغامرته لسبر أغوار الآخر والتعرف عليه عن قرب، في مشاعر متضاربه تجاهه بين تردد، وتهور، إعجاب، ونفور. تلك كانت مشاعر الرحالة المتناقضة في نظرتهم إلى ذلك الآخر المتحضر، والمتفوق عليهم.

وتسعى الدراسة إلى الكشف عن صورة الآخر في تمدنه، وتحضره، وتفوقه. متخذه من علم الإثنوغرافيا والصورة منهجا لها. في محاولة للإجابة على فرضية أن الأنا الذي يعاني من الدونية والرجعية رسم صورة الآخر بتناول أوصافه، ومظاهره، فبنى صورته بشكل مضاد ونقيض له، ومن ثم قامت الدراسة على تلك الثنائية بين الأنا والآخر لتجيب على سؤال كيف صورت الأنا الآخر في الرحلة؟ وكيف عبرت عن ذلك؟

وقد أفدنا من الدراستين الآتيتين:

- الهروط، بلال سالم، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، وأفدنا منها تعرف صورة الآخر الأندلسي. [2]
- سعدالله، مكي، الأنا والآخر في أدب الرحلة (دراسة نقدية مقارنة)، وأفدنا منها تعرف مفاهيم متعلقة بالأنا، والآخر، والهوية.[3]

يعد أدب الرحلة خزانا لدراسة المجتمعات والثقافات والحضارات، كما أنه غني بالسرد، والخيال، والحكي ومليء بالعجيب، والغريب، ومن ثم يمكن دراسته من زوايا ومناحي متعددة. وعليه لم تقتصر دراسة رحلة الطهطاوي تخليص الإبريز في تلخيص باريز على منهج واحد، فهي غنية ومتعددة الرؤى والزوايا. ولم ترد الباحثة حصرها في جانب واحد. بل ستجمع الدراسة الجانب الوصفي لأسلوب

حياة الشعب الفرنسي من وصف لعاداته، وتقاليده، ومظاهره الثقافية متخذه من علم الإثنوغرافيا منطلقا لذلك. وأيضا ستفيد الدراسة من علم الصورولوجيا في تناول صورة الآخر وكيف نظرت الذات إليه من خلال دراسة تمثيلاته في المظاهر الثقافية، والحضارية، والاجتماعية.

ويمكن تعريف (الإثنوغرافيا): " بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم، والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة."[4]إذ يهتم هذا العلم بدراسة أنماط السلوك التي تشكل ثقافة مجتمع، أو جماعة معينة. ونظرا لما شكلته الرحلة من اطلاع على الثقافات المختلفة برصد ثقافة الآخر. إذ قام الرحالة بوصف دقيق لخصائص ثقافة الآخر من حديث عن العادات والتقاليد، والمأكل والمشرب، وطريقة تناول الطعام، وترتيب المائدة، والممارسات الدينية والمعاملات اليومية.[5] " وبذلك يعد أدب الرحلات إحصاء إثنوغرافيا في غاية الإفادة لدراسة الثقافة والحضارة الإنسانية ودراسة طبيعة المجتمع الإنساني وخصائصه. من منطلق أنثروبولوجي، اهتم فيها الرحالة بوصف الأقاليم وطبائع السكان ووصف العادات المتوارثة والتقاليد والأعراف وأساليب حياة المجتمعات وممارساتهم "[6] إلا أن الرحالة لم يقف عند وصف خصائص تلك الثقافة أي ثقافة الغير. بل مزج بين ذاته وتلك الأوصاف التي وصف بها ثقافة الآخر.

فاتخذ الرحالة من علم الصورة (علم الصورولوجيا) أداة ليسقط تمثيلات الذات على صورة الآخر التي عبر عنها في ثقافته ذلك أن النص الرحلي يضج بصور تشكلات وتجليات الآخر، ويظهر ذلك في موقف الرحالة. وأيضا الصور غير المباشرة والتي يتم رصدها في وصف الرحالة لثقافة الغير وعاداته وتقاليده، وقد ترتبط الصورة بالمجاز والخيال وقد تكون واقعية. كرحلة الطهطاوي التي سنتناولها في هذه الدراسة فهي تقترن بالذات والآخر بتمثيل واقعي، وتخلو من الخيال والإيحاء.[7] وعلم الصورولوجيا يندرج ضمن أفرع الأدب المقارن الذي وجد في النصوص الرحلية مرتعا وملجأ لإنتاج الصور إذ تشكل صورة الآخر بثقافته وتقاليده وعاداته موضوعا لتمثيل الأنا والآخر.[8] فالإنسان خلق محبا للحركة والترحال و"تشير كتب التاريخ الطبيعي والأنثروبولوجيا وغيرها إلى أن الإنسان لم يتوقف عن الحركة والتنقل، حتى بعد أن تعلم الزراعة وعرف كيف يستقر ويبني ويؤسس المجتمعات. لقد ظل على مدى العصور والقرون يتطلع بعينيه إلى الآفاق البعيدة – ولا يكف عن التفكير فيما تضمه من الخلق والموجودات وفيما تحمله من الكنوز والخبرات"[9]وقد شد الإنسان الرحال لأغراض عديدة ومتنوعة. وتعددت دوافع الفرد للرحلة واختلفت من شخص لآخر. إلا أنها في غالب الأوقات كانت بسبب دوافع مختلفة.

فمن ذلك الدافع الديني؛ ويتجلى في الرحلة إلى الأماكن المقدسة لتطهير الذنوب والخطايا، كما اهتم الرحالة بالبحث عن العلوم في شتى بقاع العالم، فزار البلاد التي اشتهرت بالتطور العلمي، والعمارة، والطب، والهندسة، والفقه "وقد فعل ذلك عبد الله بن عباس والغزالي وابن منده والأحنف العكبري الشاعر، ولا نملك لمثل هؤلاء حصرا، فما أكثرهم".[10] كما يظهر الدافع السياسي في الرحلات السفارية

والدبلوماسية، إذ بعث الملوك مندوبيهم للبلدان الأخرى من أجل نقاش الشؤون السياسية، ناهيك عن الدافع الذاتي للسياحة والسفر واكتساب الخبرات، وتعرف العجيب، والغريب كزيارة الآثار والكهوف، ويظهر الدافع الاقتصادي في السعي إلى التبادل التجاري، وفتح أسواق جديدة، وقد تكون الرحلة هربًا من غلاء المعيشة، وهناك رحلات ارتبطت بدوافع صحية من أجل العلاج، وإراحة النفس، والنقاهة، وأيضا قد يكون هرب من الأوبئة كالطاعون، وغير ذلك من دوافع أخرى.[11]

وقد تمتع الرحالة بدرجة عالية من اللغة والفصاحة فشكلت رحلاتهم قيمة أدبية عالية إذ كانت الرحلة سردا للغريب، والعجيب، واللطيف، ووصفا لمظاهر الحضارة. فشكلت مادة خصبة لدراسي الأدب الذي عرف بأدب الرحلة. وقد عمقت النهضة الشعور لدى العربي بأن ما هو حديث مرتبط بغير العرب، بطريقة الحياة أو التفكير على حد سواء ومن ثم شكلت مجابهة الغربي المختلف تحديا لدى الرحالة العربي الذي اصطدم بتطور الآخر مما شكل صدمة حضارية لديه.[12]ولذلك اهتم الرحالة العرب بدراسة الآخر ووضع الأنا في مواجهته" لاكتشاف الآفاق الأخرى، والتكيف مع القيم الإنسانية، ورسم ملامح هذه الصورة من خلال تسليط الضوء على ملامح الحياة الثقافية، والاجتماعية، والدينية، للذات والآخر في تلك العصور، وهكذا بدأت الرغبة في تمحيص الآخر..، ويتم وصف الأنا والآخر في مرآة الحياة الاجتماعية لرؤية الصور المتشابهة، أو المختلفة لكليهما، وأحيانا يظهر التقابل صراحة كبخل الآخر مقابل كرم الأنا، وفي بعض الأحيان يوصف الآخر وحده دون التطرق لصورة الأنا، ولكن يمكن رؤيتهما ضمنا عن طريق التضاد، فالآخر هو المعلن عنه والأنا مسكوت عنه."[13]

و" تقابل كلمة (الغير) عادة بكلمة (الذات) التي تتحدد على أساسها ماهية الغير، فالغير عند الرحالة المسلمين يمكن أن يندرجوا تحت فئات متعددة، فهناك العرب المسلمون، والمسلمون من غير العرب، وقد أطلق عليهم (الموالي) وهناك أيضا أهل الذمة، أي غير المسلمين من أهل الكتاب مثل اليهود والنصارى خاصة، ويدخل في هذه الفئة أيضا الصابئة والمجوس. ولقد شكل (الغير) غير المسلم، بصفة عامة، في ذهنية أغلبية المسلمين شيئا مذموما لا يستأهل إلا الوصف البارد، خصوصا إذا كان لدى(الغير) عادات وتقاليد تخالف ما تعود عليه الرحالة وألفوه"[14] ومن ثم شكل غير المخالف للرحالة محورا رئيسا في حياته، فهو الضد والمخالف ونظر إليه في رحلاته القديمة نظرة استحقار ودونية فعاب عليه رجعيته. وبالعودة إلى الرحلات الأولى التي قام بها الرحالة المسلمون، تعد رحلة ابن جبير أنموذجا مثاليا لدراسة الذات والآخر، إذ اشتملت على إشارات دلت على حضور الأنا والآخر، وأبانت التميز الديني والحضاري وبروز ثقافة الذات. من خلال تعليقات ابن جبير وحديثه عما يراه؛ كإشادته مثلا بعدالة صلاح الدين الأيوبي.[15] لقد جاءت الرحلة في مواجهة بين الذات، الأنا، والآخر، الغير، لاكتشاف الآفاق الأخرى والتكيف مع قيم الإنسانية، ورسم ملامح هذه الصورة من خلال تسليط الضوء على ملامح الحياة الثقافية، والاجتماعية، والدينية للذات، والآخر. "[16]

أما في الرحلات بعد الاستعمار الفرنسي والبريطاني للعالم العربي، فقد انقلبت هذه الصورة واختلفت زاوية الرؤية لقد اكتشفت الأنا العربية مدى تراجعها ورجعيتها. أمام فشلها وضعفها تجاه المستعمر الذي هز عرش حكامها وقضى على كبريائها. يقول ابن خلدون "أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه. "[17]ومن ثم جاءت الرحلات في القرن التاسع عشر مليئة بالرغبة إلى التعرف على الآخر المتفوق، وذلك من أجل الاستفادة من تطوره وتقدمه. "رأى الرحالة وهو يجوب الغرب حضارة ومدنية غير معهودة بالنسبة له ومشاهد ثقافية ودينية مغايرة لتلك التي اعتقدها وآمن بها، فاصطدم بجديد المجسد في الأشكال المادية أو في الفكر المبثوث في الكتب والموسوعات، لفقهاء الحضارة والقانون وعصور التنوير الأوروبية، خاصة ما تعلق بالقيم الإنسانية الخالدة من حرية وعدالة ومساواة وتحرر."[18]إذ عمقت النهضة الشعور لدي العربي بأن ما هو حديث مرتبط بغير العرب بطريقة الحياة أو التفكير على حد سواء ومن ثم شكلت مجابهة الغربي المختلف تحديا لدى الرحالة العربي الذي اصطدم بتطور الآخر مما شكل صدمة حضارية لديه.[19]

ومن أهم الرحلات التي قامت في القرن التاسع عشر رحلة الطهطاوي إلى باريز إذ تعد رحلته (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الانطلاقة الحقيقية لتعرف الحضارة الأوروبية، ففي سنة 1826م أرسل السلطان محمد علي والي مصر بعثة علمية للتعلم والإستفادة من فرنسا باعتبارها عاصمة الحضارة الغربية.[20] وقد بلغ عدد المبعوثين 42 دارس، انضم إليهم آخرون فيما بعد ليصل عددهم 114 طالب وقد أرسل قبلهم محمد علي عددا من البعثات ولكن لم تحقق الأهداف المرجوة، لتأتي هذه البعثة وتبعث الأمل في النفوس من أجل تحقيق النهضة العربية إذ تميز طلابها وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوي وحصلوا على عدد من الجوائز العلمية في باريز واختلفت تخصصاتهم وتنوعت فدرسوا :الإدارة الحربية، الإدارة الملكية، الهندسة الحربية وعلم المدفعية، الكيمياء، وعمليات السبك، الطب البشري، الطب البيطري، علوم البحرية، الرسم، الزراعة، المعادن، الترجمة، اللغة، الحساب، التاريخ، الجغرافية.[21]

ولد رفاعة الطهطاوي في مدينة طهطا وهي إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر بتاريخ 15 أكتوبر سنة 1801 م. وهو ينتمي إلى الأشراف فوالده هو: بدوي بن علي بن محمد بن علي بن رافع ويتصل عبر عدد من أشراف الصعيد وعلمائه وقضاة الشرع فيه، التحق بالقاهرة للدراسة في الأزهر وهو في السادسة عشرة من عمره، فتتلمذ على يد علماء أزهريين أفاضل، على رأسهم الشيخ حسن العطار الذي كان له فضل كبير على الطهطاوي.[22]

ويمكن الإشارة إلى باعثين رئيسين لتدوين رحلته، وهما:

- رغبة الطهطاوي بإفادة طلاب الأسفار وتوثيق ما يراه من أمور عجيبة وغريبة، وأيضا أنه لم يكن هناك أي حديث عن مدينة باريس في الكتب العربية، وبسبب توصية أقاربه وشيخه حسن العطار الذي كان محبا لسماع الأخبار، والغرائب.

- الرغبة في حث ديار المسلمين على البحث عن العلوم، والفنون، والصنائع وبهذا لم تقتصر الرحلة فقط على ذكر أخبار السفر بل اشتملت على حديث عن العلوم والصنائع [23]."

وكان اهتمام الشيخ رفاعة منصبا أكثر ما يكون على مشاهداته وملاحظاته في باريس أكثر من غيرها من المدن الفرنسية، ولربما كان ذلك أمرا طبيعيا بحكم إقامته الطويلة فيها؛ فقد أولاها فعلا كل اهتمامه فعرض إلى تسميتها وتخطيطها من جهة وضعها الجغرافي وطبيعة أرضها ومزاج إقليمها وقطرها، وتحدث عن قناطرها على نهر السين الذي يخترقها، وعن قنوات الماء والصهاريج فيها، وعن مطاياها من العربات الكثيرة التنوع والقرقعة التي لا تنقطع في النهار أو الليل"[24].

وقد خرجت الرحلة من مصر في الثامن من شعبان سنة 1241 هجري، عبر زوارق صغيرة توجهت إلى الإسكندرية حيث مكثوا فيها ثلاثة وعشرين يوما وبعدها ركبوا البحر المالح المتصل بثغر الإسكندرية وهذا البحر يسمى عند الإفرنج بالبحر المتوسط، ومروا بجزيرة كريد في اليوم السابع لسفرهم ثم في اليوم الثالث عشر رأوا جزيرة سيسيليا أي صقلية وفي اليوم الخامس عشر رست السفينة في مدينة مسينة ولكن لم يسمح للبعثة بالخروج من السفينة وذلك بسبب إجراءات دخول من يقدم من البلاد الشرقية، فلابد من خضوعه للكرتنة أي العزل الصحي وتزودت البعثة في هذه المدينة بمختلف أنواع الزاد ومكثت فيها خمسة أيام وفي اليوم الرابع والعشرون جاوزوا مدينة نابلي وفي اليوم التاسع وعشرين رأوا جزيرة قرسقة وهي وطن نابيلون وفي اليوم الثالث والثلاثين رست السفينة في مرسيليا فكانت رحلتهم في البحر ثلاثة وثلاثين يوما مكثوا خلالها خمسة أيام قدام مسينة ونحو يوم قدام نابلي. رست السفينة (في مرسيليا إحدى فرض بلاد فرنسا وأقاموا بعدها في بيت خارج المدينة (الكرنتينة) وذلك لعادة البلاد الغربية فلابد لأي غريب أن (يكرتن) قبل دخول المدينة ومكثوا في هذا المكان ثمانية عشر يوما لم يخرجوا منه وهو مكان متسع وبه حدائق وأماكن للتنزه. ثم دخلوا مرسيليا وأقاموا فيها 50 يوما، وبعدها انتقلوا بالعربة ووصلوا إلى مدينة ليون ومكثوا فيها نصف يوم وبعدها وصلت الرحلة إلى هدفها المنشود مدينة باريز.[25]

شكلت صورة الآخر لدى الشاب المصري الأزهري رفاعة الطهطاوي صدمة حضارية وثقافية إذ وجد فيه صورة مضادة للثقافة العربية الإسلامية." إن هذا الانتقال من الموقع الندي إلى حد ما إلى موقع لا يمكن فيه قياس التأخر بالتقدم، هو ما سيحرر نظرة الرحالة

ويفجر طاقته الاستكشافية ويعزز من ناحية أخرى (رغبته التقدمية) التي يترجمها الإعجاب والانبهار بالتنظيم الاجتماعي الأوروبي بالرغم من عوائق الدين والمقارنات الناجمة عنها"؛[26] إذ "تتشكل كل رحلة من هذه الرحلات في نسيجها الإخباري والوصفي والحكائي والفكري بالعلاقة مع ضربين من المعطيات: المرجعية الذاتية من حيث هي بؤرة استقاء للمعلومات واختيارها والتركيز على بعضها وتقديم عناصرها العاطفية والإدراكية، وهي مرجعية تغدو أحيانا نافرة وبارزة بمقدار انفلاتها من المرجعية السياسية المتحكمة في الرحلة"[27]ولم تحمل رحلة الطهطاوي ذلك الطابع المتكلف الجاف فهي بعثة علمية فلم يغلب عليها الطابع الرسمي، بل جاءت الصورة عفو الخاطر لتكشف المفارقة وبشفافية ووضوح لتعبر عن الأنا في حالته المختلفة متشددا، متدينا، وقد تبدو الأنا في صورة المرأة العربية، وأيضا قد تكون أنا جماعية تعبر عن الثقافة العربية التقليدية. في مقابل ذلك ظهر الآخر في صورة المتمدن، والمثقف، والمتطور فكانت الرحلة مقارنة ومفاضلة بين الأنا والآخر في شتى الجوانب على سبيل المثال: المفاضلة بين نهر النيل ونهر السين، والنظافة في باريس والحشرات في القاهرة، واللباس والقوانين، والجامعات. وقد وردت المفاضلة صراحة في كثير من المواضع كحديثه عن تبرج النساء وإبداء إعجابه بهن.

لقد وجد الشاب الأزهري رفاعة الطهطاوي في أهل باريس الصفات والخصال الحميدة، وعلى الرغم من كون الأنا متدينة إلا أنها تصرح بإعجابها بالآخر النصراني، فامتدح الطهطاوي أخلاق الآخر وخصاله. فيقول عنه: "اعلم أن الباريزيين يختصون من بين كثير من النصارى بذكاء العقل، ودقة الفهم وغوص ذهنهم في الغويصات، وليسوا مثل النصارى القبطة، في أنهم يميلون بالطبيعة إلى الجهل والغفلة، وليسوا أسراء التقليد أصلا، بل يحبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى إن عامتهم أيضا يعرفون القراءة والكتابة، ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة"[28] فلم تكن الأنا تعبر عن الطهطاوي فقط، بل وضع الطهطاوي أنا الأقباط المصريين مقابل أنا النصارى الفرنسيين، ليعبر عن الصورة المتناقضة بين الفريقين، بالرغم من أنهما ينتميان لنفس الملة ولكنهما يختلفان في الهوية ونوضح صفات كل فريق منهما من خلال الجدول الآتي:

	الآخر (النصارى أهل باريس)	الأنا (النصارى الأقباط)
1-	ذكاء العقل	الجهل
2-	دقة الفهم والغوص في التحليل	الغفلة
3-	حب الاستطلاع والقراءة والكتابة	التقليد

لقد اختلف الخطاب الرحلي للطهطاوي في وصف إعجابه بالآخر وتمدنه، فلجأ أحيانا إلى إشارات ضمنية، ولمح أحيان أخرى، وكثيرا ما نجده يصرح بكل وضوح. وفي المشهد السابق لم تكن الأنا مسكوتا عنها بل مصرحا بها فوضعها الطهطاوي صراحة في مقابل الآخر ليظهر مدى تفوق الأخير.كما اهتم الطهطاوي بالآخر المتمثل بالمرأة الفرنسية أيضا: فيقول الطهطاوي عنها:" ونساء الفرنساوية بارعات الجمال واللطافة، حسان المسايرة والملاطفة، يتبرجن دائما بالزينة، ويختلطن مع الرجال في المتنزهات. وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك المحال، سواء الأحرار وغيرهن، خصوصا يوم الأحد الذي هو عيد النصارى"[29]تصف الأنا المحافظة صورة الآخر المتمثل بالمرأة الفرنسية المتحررة، والمتبرجة، والتي تتمتع باللطف، والتحضر، والتمدن. ولها الاستقلالية والحرية وتختلط بالرجال.

ويتناول المشهد التالي المقارنة بين صورة المرأة المصرية والفرنسية فيقول الطهطاوي: " وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة، خصوصا إذا تزين بأغلى ماعليهن، ولكن ليس لهن كثير من الحلي فإن حليهن هو الحلق المذهب في آذانهن، ونوع من الأساور الذهب يلبسنه في أيديهن خارج الأكمام، وعقد خفيف في أجيادهن، وأما الخلاخل فلا يعرفنها أبدا، ولبسهن في العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو البشت"[30] وتظهر صورة الأنا المتمثلة في المرأة المصرية التي كشف عنها ببيان صفات لباسها كقوله (ليس لهن كثير من الحلي وهنا يشير إلى أنا المرأة المصرية الشعبية وارتدائها العديد من الحلل، والخلاخل وتكلفها في الحلي والأساور. على عكس المرأة الفرنسية التي تميل إلى النعومة وعدم التكلف في الزينة.

كما تناول الطهطاوي في رحلته العلاقات بين الجنسين فوصفها قائلا: " إن باريس جنة النساء، وأعراف الرجال، وجحيم الخيل، وذلك أن النساء منعمات، سواء بمالهن أو بجمالهن "[31] لقد حددت أنا الطهطاوي الشرقية الأدوار الاجتماعية بين الجنسين في باريس، لتعبر عن دهشتها إزاء ما رأته من صورة مخالفة لما ألفته وذلك في مقارنة ضمنية بين الأنا الشرقية التي تحظى بالسلطة والقوامة، والآخر الرجل

الفرنسي الذي وصفه في المشهد التالي بالعبد للمرأة الفرنسية المرفهة فيقول:" وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء، عبيد النساء فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته، وأما الخيل فإنها تجر العربات ليلا ونهارا على أحجار أرض باريس خصوصا إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة، فإن (العربجي) يجهد خيله ليوصلها إلى مقصدها عاجلا، فالخيل دائما معذبة بهذه المدينة." [32] ومن ثم تسخر كل من في باريس من إنسان وحيوان لخدمة تلك المرأة الجميلة والفاتنة.

ويبدو الطهطاوي منفتحا وصريحا في حديثه عن تبرج النساء وإعجابه بجمالهن على عكس المكناسي مثلا الذي أبدى انزعاجه من ذلك "فنجده يبدي انزعاجه من هذا الأمر في مشهد واحد فقط من الرحلة وذلك بسبب وضعه الدبلوماسي الذي يحتم عليه عدم نقد الآخر " وهذا الاستنكار الذي لن يكرره خلال فصول الرحلة (وبعد العشاء، اجتمع بالدار المذكورة نساء أعيان البلد والضامات بقصد أن يسلمن علينا. فأخبرني الحاكم، فتلكأت عن الخروج إليهن لأنه لحقنا من الركوب في الكدش مشقة من كثرة حركاته لعدم إيلافنا ذلك، فألح علينا الحاكم، فلم يمكنني إلا إسعافه، فخرجت فإذا بجمع كثير من النساء قد أظهرن زينتهن وتبرجهن تبرج الجاهلية الأولى، فأظهرن من الفرح والسرور والأدب ماقضينا منه العجب، وقابلناهن بما يجب وانصرفن "[33] وهنا لم تعجب الأنا المحافظة بالآخر المتحرر بل نقده وأعاب عليه، فوصف تبرج المرأة الفرنسية بتبرج الجاهلية الأولى.

رأى الرحالة العربي في الآخر صورة مضادة للذات التي لم تتطور بعد، ولذلك سعت الذات إلى اكتشاف الآخر بفضول ورغبة في التعرف على مظاهر التفوق، والتطور، والتحضر لديه. فتشكلت أنا الطهطاوي الأزهرية المصرية مقابل الآخر الفرنسي المتحرر. ولم تتردد الذات بوصف صورة الآخر بكل تفاصيلها الدقيقة فأبان الطهطاوي في رحلته الآخر بالحديث عن طباعه، وعاداته، ووصف بيته، ونظافته، وترتيبه، ولطافته كما تحدث عن أغذيته وعاداته في الطعام والشراب مثنيا عليه.[34] يقول في وصف تطور الآخر في نظام المائدة:" وعادة الفرنساوية الأكل في طباق كالطباق العجمية أو الصينية لافي آنية النحاس أبدا. ويضعون على السفرة دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا، وملعقة، والشوكة والملعقة من الفضة. ويرون أن من النظافة أو اللباقة ألا يمس الإنسان الشيء بيده، وكل إنسان له طبق قدامه بل وكل طعام له طبق وقدام الإنسان قدح يصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعه على السفرة، ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر، فأواني الشرب دائما من البلور والزجاج، وعلى السفرة عدة أواني (كذا) صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح، والآخر فيه فلفل، وفي الثالث خردل. "[35]

ونورد مقارنة بين الآخر والأنا في الجدول الآتي:

الآخر	الأنا (المسكوت عنه)
يتناول طعامه في أطباق عجمية أو صينية	يتناول طعامه في آنية نحاس
تناول الطعام بالشوكة والسكين والملعقة وغالبا من الفضة	تناول الطعام باليد
كل إنسان له طبق خاص به	الاشتراك في طبق واحد
كأس خاص لكل فرد	الاشتراك في الكؤوس

وبهذه المقارنة يتبين أن الرحالة وجد في الآخر الاختلاف والتقدم حتى في مجال مائدة الطعام، فتنبه رفاعة الطهطاوي إلى عادة الآخر وتنظيمه، فأثني على التنوع في مائدته وابتداء الطعام بالشوربة، واختتامه بالحلويات أو الفواكه. كما مدح أواني الطعام التي قد تكون عجمية أو صينية لا في آنية نحاس كما يقول، وهنا إشارة إلى الذات العربية غير المنظمة والتي لم يصرح عنها بل جاءت ضمنية كما وضحناها في الجدول السابق. والقارئ لرحلة الطهطاوي يلحظ مدى انفتاحه على الحداثة وتصريحه بإعجابه بها إذ أن رحلته لم يغلب عليها الطابع الرسمي والجاف فلم تكن " أشبه بالتقرير الذي يوجه مباشرة لقراءة السلطان. وهو أيضا الأمر الذي يجعل من اللحظات الذاتية لحظات للدهشة والعجب بامتياز، تتجاوز قدرات الذات على كتم ذلك الإحساس لأنه خير مبلغ لعظمة المرئي أو جانبه المدهش " [36]فقد غلب على رحلة الطهطاوي الذاتية، والبساطة فعبرت عن مكنونات الشاب الأزهري الذي دهش بتمدن الآخر وثقافته وصفاته فاتسمت رحلته بعدم التكرار في الحكي، وعدم استعمال القوالب الجاهزة التي تعبر عن تعصب ديني أو عربي والشفافية، والصراحة في تصوراته الاجتماعية فيما يخص عوائد الآخر الاجتماعية فجاءت رحلة الطهطاوي منفتحة الأسلوب ومنطلقة الأحاسيس من وصف للحكي، وتعبير عن الإعجاب، والدهشة، وتجاوز في الذاتية. [37]

2. خاتمة:

وبذلك يمكن القول إن رحلة الطهطاوي شكلت بما حملته من ذاتية وشفافية نقطة انطلاقة لما تلاه من رحلات سفارية، إذ ألهم الطهطاوي العديد من الرحالة العرب على سبيل المثال الصفار التطواني، والمكناسي، والحجوي. لتعرف ملامح الآخر وسبر أغواره، كما حركت رحلته عجلة النهضة في مصر والعالم العربي. فأضافت إلى الدرس الرحلي وصفًا دقيقًا لمدينة لم يعرفها الرحالة العربي، وصفًا قائما على المقارنة بين الذات والآخر، بدا تقدم الآخر في كثير من مناحي الحياة ولاسيما من جهة المعرفة ومن جهة حضور المرأة في المجتمع، وكذلك من جهة الدقة والتنظيم.

فأضافت إلى الدرس الرحلي وصف دقيق لمدينة لم يعرفها الرحالة العربي، ومن خلال هذه الدراسة توصلنا إلى عدد من النتائج وهي:

1- الدوافع العلمية للرحلة صبغتها بالذاتية والعفوية.

2- شكل الآخر الغربي نقيضا للأنا الشرقي.

3- امتاز الآخر الغربي بالتحليل والفهم بينما الأنا العربي بالجهل والتخلف.

4- صورة المرأة الفرنسية تميزت بالنعومة والثقافة والتحرر، بينما المرأة العربية تميزت بالتكلف والخضوع لسلطة الرجل.

5- امتاز الآخر بالتنظيم والدقة بين الأنا العفوية والارتجال.

3. قائمة المراجع:

المصادر:

الطهطاوي، رفاعة، (2012)، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

المؤلفات:

ادونيس، (1978)، الثابت والمتحول، الجزء الثالث: صدمة الحداثة، بيروت.

الشوابكة، نوال، (2008)، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، العراق، دار المأمون للنشر.

حليفي شعيب، (2002)، الرحلة في الأدب العربي التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

عمارة، محمد، (2007)، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، القاهرة، دار الشروق.

فهيم، حسين، (1978)، أدب الرحلات، الكويت، عالم المعرفة.

قنديل، فؤاد، (2002)، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب.

محمود حسين، حسني، (1983)، أدب الرحلة عند العرب، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

الاطروحات:

الهروط، بلال سالم، (2008)، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، جامعة مؤتة، الأردن.

سعدالله، مكي، (2016-2017)، الأنا والآخر في أدب الرحلة (دراسة نقدية مقارنة)، جامعة باتنة، الجزائر.

المقالات:

الزاهي، فريد، (2013)، الممانعة والفتنة الجسد والذات والصورة متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا، الكوفة، السنة 2، العدد 2.

سديرة، سهام، (2017)، أدب الرحلة: الماهية، البنية والشكل، مجلة آفاق فكرية، مجلد 3، العدد 7.

الهوامش

[2] الهروط، بلال سالم، (2008)، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، جامعة مؤتة، الأردن.

[3] سعدالله، مكي، (2016-2017)، الأنا والآخر في أدب الرحلة (دراسة نقدية مقارنة)، جامعة باتنة، الجزائر.

[4] سديرة، سهام، (2017)، أدب الرحلة: الماهية، البنية والشكل، مجلة آفاق فكرية، مجلد 3، عدد 7، صفحة 258.

[5] ينظر: المرجع نفسه، صفحة 258.

[6] المرجع نفسه، صفحة 258.

[7] ينظر: حليفي شعيب، (2002)، الرحلة في الأدب العربي التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، صفحة 265، 264

[8] ينظر: المرجع نفسه، صفحة 263.

[9] قنديل، فؤاد، (2002)، أدب الرحلة في التراث العربي، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، صفحة 17.

[10] ينظر: المرجع نفسه، صفحة 10.

[11] ينظر: المرجع السابق، صفحة 19-20.

[12] ينظر: ادونيس، (1978)، الثابت والمتحول، الجزء الثالث: صدمة الحداثة، بيروت، صفحة 284.

[13] الهروط، بلال سالم، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، صفحة 18.

[14] فهيم، حسين، (1978)، أدب الرحلات، الكويت، عالم المعرفة، صفحة 177.

[15] ينظر: الشوابكة، نوال، (2008)، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، العراق، دار المأمون للنشر والتوزيع، صفحة 178.

[16] المرجع نفسه، صفحة 177.

[17] سعدالله، مكي، الأنا والآخر في أدب الرحلة (دراسة نقدية مقارنة)، صفحة 43.

[18] المرجع نفسه، صفحة 43.

[19] ينظر: ادونيس، الثابت والمتحول، الجزء الثالث: صدمة الحداثة، صفحة 284.

[20] فهيم، حسين، أدب الرحلات، صفحة 183.

[21] عمارة، محمد، (2007)، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، القاهرة، دار الشروق، صفحة 40.

[22] المرجع السابق، صفحة 40.

[23] ينظر: محمود حسين، حسني، (1983)، أدب الرحلة عند العرب، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، صفحة 69.

[24] المرجع نفسه، صفحة 70،71.

[25] الطهطاوي، رفاعة، (2012)، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، صفحة 40-60.

[26] الزاهي، فريد، (2013)، الممانعة والفتنة الجسد والذات والصورة متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا، الكوفة، السنة 2، العدد 2، صفحة 171

[27] المرجع نفسه، صفحة 172.

[28] الطهطاوي، رفاعة، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، صفحة 83.

[29] الطهطاوي، رفاعة، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، صفحة 90.

[30] المرجع نفسه، صفحة 129.

[31] المرجع السابق، صفحة 91.

[32] المرجع نفسه، صفحة 91.

[33] الزاهي، فريد، الممانعة والفتنة الجسد والذات والصورة متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا، صفحة 174.

[34] ينظر: محمود حسين، حسني، أدب الرحلة عند العرب، صفحة 71.

[35] الطهطاوي، رفاعة، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، القاهرة، صفحة 126.

[36] الزاهي، فريد، الممانعة والفتنة الجسد والذات والصورة متخيل الرحلة السفارية المغربية إلى أوروبا، صفحة 173.

[37] ينظر: المرجع السابق، صفحة 173، 174.